مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (3)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (3) 2009

الحداثة في شعر محمود درويش

الدكتور غسان غنيم *
مبارك سعيد **

(تاريخ الإيداع 10 / 5 / 2009. قبل للنشر في 8 / 9 / 2009)

□ ملخّص □

يهدف هذا البحث إلى توضيح مسألة الحداثة الشعرية عند محمود درويش ، والوقوف على دلالاتها ، وإلى رصد ما للقصيدة عنده من دور في رسم معالم رؤيا متميزة في محبة الأرض والإنسان .

وتعد هذه الرؤيا الجديدة تطوراً لواحدة من إيجابيات الشعر العربي في العصر الحديث ، حيث خرج الشعراء عن النهج التقليدي في وحدة البيت والقصيدة قديماً ، فنمت الملكات الفكرية ، وامتلك كثيرون رؤى فنية مغايرة للقديم.

فالحداثة نقلة نوعية انعكست على الأدب عامة ، وعلى الشعر الحديث بخاصة ، لأن الشعر يملك على مر الزمان أكبر هامش من الحرية ، من خلال صوره ورموزه وتعابيره ، وبذلك أضحت القصيدة الحديثة وحدة عضوية، وغدت بتشكيلها الخارجي ومضمونها تجربة فنية إبداعية جميلة .

الكلمات المفتاحية: الحداثة ، الرؤيا الشعرية ، محمود درويش ، الجمالية .

* أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق – دمشق – سورية .
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة دمشق – دمشق – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (3)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (3) 2009

Modernism in Mahmoud Darwish's Poetry

Dr. Ghassan Ghonaim*
Moubarak Said**

(Received 10 / 5 / 2009. Accepted 8 / 9 / 2009)

□ ABSTRACT □

This research aims at exploring the issue of Mahmoud Darwish's poetic modernism, highlighting the role the poem plays in bringing out distinctive visions of love for land and Man. This new vision is considered a reflection of the positive sides of Arabic poetry in modern time. When poets find out new ways out of the traditional frame in the unity of line and that of the poem, so a fresh mentality has emerged, and so many poets have obtained new artistic visions that are quite unlike the old ones. Modernism is regarded as a distinctive step reflected on literature in general, and on poetry, in particular; since poetry has, through its symbolic images and expressions, a wide margin of freedom throughout. the modern poem has become an integral part both in form and content..

Keywords: Modernism, poetic vision, Mahmoud Darwish, aesthetics

***Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Damascus, Syria.**
****Postgraduate Student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Damascus, Syria.**

مقدمة:

لكل زمن رجاله ولكل عصر شعراؤه ، ولكل منهم منهجه وطريقته في الأداء والتعبير، وقدراته التي يستطيع من خلالها إيصال أفكاره إلى الناس بطرائق تعتمد على رؤيا تعيد إلى الواقع أشياء جديدة ، تتجاوز اللحظة الآنية امتداداً نحو أفق مستقبلي ، ولكن ثمة مصطلحات كثيرة ظهرت في العصر الحديث ، تناولت الأدب وأسهبت في تحليل نتاج الشعراء الذين يحملون رؤى بعينها تميزهم عن غيرهم متجاوزة ما درج عليه الأوائل لترسم لحاضر ومستقبل يفرض عمقاً وتنوعاً في الدراسات التي لم تكن على ما هي عليه اليوم من تنوع نقدي ، نلحظه في هذا الزمان الذي يركز فيه على القارئ ، وذلك لدوره في تحقيق النص على نحو فعلي ، كما ترى مدرسة كونستانس، وهي مدرسة جمالية التلقي ، وفعل القراءة من قبل القارئ ، وبالتالي تشكل المعنى [1] .

ولست في مجال الدراسة التاريخية للحداثة لأن الأمر يطول ، وإنما لا بد من أن نقول ليست مفهوماً مطلقاً له تأطيره وحدوده المرسومة ، والتي يصعب تجاوزها ، وإنما نستطيع القول : الشعر رؤيا بما يطرحه من قيم ومعان، لذلك فإن الرؤيا الشعرية التي تبدو في أكثر الأحيان الصياغة الجديدة لنتاج الرؤيا ، والكشف الإبداعي لا كما هي، وإنما كما ينبغي أن تكون [2] ، وهنا نجد أن الشعر الحديث لا يؤثر بالفكرة أو الصورة وحسب ، وإنما بالرؤيا التي يفسر بها الشاعر الحياة ، وقد تكون كشفاً منح عليه لشاعر من أمثال محمود درويش ، الذي نهج نهجاً حديثاً ترجم من خلال الرؤية البصرية بمرتسماتها المتنوعة ذات النظرة الثاقبة ، والملاحظة الدقيقة للأشياء ، إلى شاعر تتجسد عنده الصورة المعاصرة بتقنيات جديدة .

فإذا كان الجاحظ قد قال : " الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير" [3]، وقوله ما زال مضرب المثل، ونحوه تتجه أقلام النقاد من كل صوب ، وعليه فإن الأدب القديم لم يخل من التأكيد على الصورة الشعرية بشكل أو بآخر ، ونقرأ تبايناً كبيراً بين النقاد والمحللين حول الشعر قديمه وحديثه .

ومن منا لا يذكر قول قدامة بن جعفر : " الشعر صورة لمعانيه " [4]، وفي الإعجاز للجرجاني: سبيل الكلام، سبيل التصوير والصياغة [5].

مما تقدم نجد أن الزمن القديم حافل بأسماء فتحت أبواباً لعلاقة ما بين الشاعر وجهد المصور والصائغ ، إلا أن حداثة الرؤيا هي التي فرضت مفهومها المتداول اليوم ، فلقد أخذت بعداً جديداً في العصر الحديث ، لتعبّر عن حال الشاعر ، ولتبرز شاعريته ، وليس بالضرورة دائماً أن تنتظر الرؤيا ما تقدمه الرؤية الحسية .

إن الرؤيا قد تصنع طبيعة الرؤيا، وتقرر لها زاويتها، لتحدد هويتها الذاتية منذ الخطوة الأولى في العمل الإبداعي[6].

---

[1] ينظر : جعفر علي ، مدلول (الرؤية) و (الرؤيا) في بحثه المقدم إلى مهرجان المربد الثامن ، 1995 ، ص12.

[2] ينظر : إسماعيل ، سامي : جماليات التلقي ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط1 ، 2002 ، ص9-10 .

[3] الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ، 1945 ، ج122/3 .

[4] ابن جعفر ، قدامة : نقد الشعر ، تحقيق محمد عيسى حنون ، مصر ، 1934 ، ص17 .

[5] الجرجاني ، عبد القادر : دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد بن تاريت ، د.ت ، ص175 .

[6] ينظر : الجادر ، محمود عبد الله : الصورة بين الرؤية والرؤيا في الشعر العربي ، مجلة المورد ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، العدد الأول ، 1995 ، ص12 .

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية هذا البحث كدراسة أدبية نقدية، تعالج مسألة الحداثة الشعرية عند شاعر يمثل قفزة نوعية في هذا الإطار، وهو الذي كان في فكره السياسي ، ولغته ، وصوره ، وموسيقاه حداثياً بامتياز ، يضفي على ذلك الثورية التي جعلت الأرض المحتلة قضية حتى غدا شاعر الأرض المحتلة ، فتجاوزت الكلمة عنده الشكل الخارجي، وتسامت دلالتها برؤيا تبحر في الخلق والكشف والتغيير ، من خلال ما يحمله شعر محمود درويش من صور متنوعة ، وبوابات شعرية لصيغ فنية جميلة ، تحمل منهجاً ومفهوماً في إحداث ما هو حديث في شعره [7]، تعمل على بث روح جديدة في الدراسات السابقة لتجعلها دراسة متخصصة في صورة الحداثة عنده ، لما يحمله شعره من رؤى تخترق العادي ، وصولاً إلى تغيير في نظام الأشياء والعلاقات ، فهو الذي عرفناه فارس الكلمة الجريئة المعبرة ، والموقف الملتزم الذي يعالج قضايا الوطن بشفافية ، من خلال صور تتبصر في حياة الإنسان ، فرؤياه نظرة شاملة وليست فلسفة شاملة ، فقد أعاد الفكر إلى الشعر الثوري الفاعل في التغيير لا المتعة وحسب ، يحس الواقع ويعبّر عنه أجمل التعبير ، فالشعر دم القلب الذي ينزف ، وماء العين التي تدمع في لغة الكفاح والشقاء، لإظهار ما للحداثة في شعره من فرادة ، فهي رؤية ثورية لواقع يريد فعله في المستقبل ، حياة ذات شمولية تجديدية معبرة " لأن الحداثة واتساع مجموعة المواضيع أدت إلى اتساع الوسائل التشبيهية، وترسيخ المعنى الرمزي المحدد الذي يسمح بنقل أدق الأفكار، وفي بعض الأحيان يعبّر عن الرغبات المخفية " [8].

منهجية البحث:

تقوم منهجية البحث على اعتماد المنهجين الواقعي والتحليلي في مسألة دراسة الحداثة الشعرية عند الشاعر محمود درويش ، فالأدب ليس محاكاة الواقع وحسب ، وإنما هو إبداع لتطوير الواقع في إطار من التكاملية التي ترى في محمود درويش ظاهرة شعرية تتميز بالخصوبة ، يغلفها التفاؤل الثوري ، الذي انطبع به شعره وتفرّد به عن غيره من شعراء الأرض المحتلة ، ليؤثر تأثيراً عظيماً على الساحة العربية في إطار من الدقة والشمولية المعرفية ، فشعره ثورة بطبيعته ، تتجسد فيه آفاق تتجاوز اللحظة الراهنة ، فهو ليس من الشعراء التموزيين ، لكنه شاعر الأرض المحتلة ، وشاعر التفاؤل الثوري ، لروح نابضة بقيم ومثل جعلته السبّاق لحمل لواء الحداثة في عالمه الشعري المميز ، فغدا صاحب تجربة شعرية غنية بالإبداع، وضعته في مصاف أبرز الشعراء ، فالنص الشعري عنده يمثل قطبين: الأول : فني يتمثل فيما أبدعه الشاعر ، والثاني : جمالي يتشكل بفعل الإدراك الذي يقوم به القارئ [9].

رؤيا الحداثة:

تنوعت في العصر الحديث قضايا التحديث ، فشغلت الحركة التجديدية الشعر والشعراء على حد سواء، وأخذ هذا المفهوم الجانب الأهم في الحركة الأدبية الحديثة وخرج شعره عن النهج التقليدي فشكّل ذلك ردة فعل لدى بعض النقاد، ولقد ظهرت تأثيرات الحركة الأدبية الغربية على بعض الشعراء ، مما جعلهم يخرجون على النمط التقليدي،

---

[7] النابلسي ، شاكر : مجنون التراب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، 1987 ، ص586 .

[8] ميّا ، فاخر : النظم الإبداعي عند الشاعر بدر شاكر السياب ، دار الينابيع ، دمشق ، 1999 .

[9] آيزر فولفانج : عمليات القراءة ، ترجمة عفيف علي ، مجلة فصول ، مج16 ، ع4 ، 1988 ، ص344 .

فنمت الملكات الفكرية عند كثيرين منهم ، وامتلك بعضهم رؤى فنية مغايرة للقديم ، على الرغم من أنَّ الحداثة ليست مفهوماً محدداً تؤطره حدود لا يمكن تجاوزها فلكلّ عصر جديد ثوب جديد من أجل عمل جديد ، ولكل شاعر منهجه.

الحداثة مسألة لا تقف عند حد معين وليست متميزة بمقاييس بعينها ، ولعلّ التاريخ الأدبي سجّل للمعري، وبشّار، وأبي نواس ، وغيرهم سبقاً في مظاهر الحداثة في ذلك الزمان الذي وجدوا فيه ، فإذا كانت الحداثة ظاهرة تلمس كيفيات جديدة ، وصيغ مغايرة للتعبير لدى شاعر كبشّار بن برد فإنها رحلة طويلة بحثاً عن الجديد والمتجدّد، فلقّب بعض النقاد بشاراً بـــ (قائد المحدثين) و(أول المولدين) في زمانه ذاك لأنه كان ثائراً من ثوار الشكل الفني وصانعاً فريداً لقلائد التشبيهات الجديدة غير المألوفة [10] وأبو نواس حرّر الشعر من الحياة الجاهزة ، فكان حداثياً أيضاً في ذلك مستلهماً " جدّة الزمان " حسب تعبيره [11].

" ونحن غير واثقين من أن فكرة الشكل الشعري تخضع بسهولة للتعريف العلمي وأن العناصر الشعرية للشكل لا تمنن بالفكرة فقط بل إن الشكل : هو الحجم الفني للغة الشعرية التي تشتمل على الشكل والمضمون وبهذا تكون فكرة الشكل الشعري كما في النقد الغربي (تأملية) [12].

وسرعان ما غدت هذه الحركة مبنية للمواقف التي يحمل لواءها الشعراء والنقاد الذين عبرت أقلامهم بما جاءت به قرائحهم ، فإذا كان الشاعر والناقد أدونيس يترجم أفكاره من خلال صدمة الحداثة وزمن الشعر وغيرهما من المؤلفات التي تحمل رؤيا جديدة ، فإن الحداثة تأتي بالجديد لكي تخلق الجديد ، وفقاً لمقتضيات السيرورة الشعرية والرؤيا الفنية والتعبيرية ، فتعمل الأدوات الشعرية والأسلوب الفني في ضوء الولادات التجديدية المعبرة .

فكل حداثة تجريب ، وكل تجريب حداثة ، والفرق كبير بين العصرية والحداثة فالحداثة هي الرقعة، والحداثة هي الحياة بشموليتها ، وهي تختلف عن العصرية لأن العصرية فكرة في الزمان والحداثة واقع وفعل واع ومتجاوز[13] فالشاعر محمود درويش ، هو أنموذج متطور في الشعر العربي ومع هذا فالفارق كبير بين قصائد دواوينه الأولى ، ودواوينه المتأخرة، وعليه فالقصيدة على الرغم من حداثتهما لم تأخذ عنده قالباً ثابتاً ، وإنما سارت بمنهجية متطورة ، وصولاً إلى مفاهيم ثورية ، يؤمن بها ، ويدافع عنها ضد العدو الغاصب ، رافضاً الظلم والقمع والاضطهاد والتشرد، إنه شاعر مقاوم حمل عبء المسؤولية أداء والتزاماً بقضية الوطن، ليغدو الإنسان والأرض من أهم النقاط البارزة في رؤياه الشعرية ، وبغضّ النظر عن الشعر الفلسطيني المعاصر والذي قيل للحب والاشتياق نحو الوطن السليب . فإن الأرض في نظم الشعراء العرب القدامى عبارة عن قطعة من منظر طبيعي على حين كانت عند السياب وأمثاله من الشعراء التموزيين . أساس الوجود والولادة والموت والانبعاث إلى الحياة الجديدة " [14].

مفهوم جديد لصورة شعرية تتجاوز الأشكال إلى المبنى والمعنى ، بحيث تصبح الصورة الحديثة معياراً للعبقرية الأصيلة ، حينما تشكلها عاطفة سائدة أو سلسلة من الأفكار [15]، غزارة شعره هي فتح جديد له خصوصية،

---

[10] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، دار العودة ، بيروت ، 1983 ، ص43 .

[11] المصدر نفسه : ص47 .

[12] ميّا ، فاخر : النظم الإبداعي عند الشاعر بدر شاكر السياب ، ص47 .

[13] ينظر : النابلسي ، شاكر : مجنون التراب ، ص591–592 .

[14] ميّا ، فاخر : النظم الإبداعي عند الشاعر بدر شاكر السياب ، ص32 .

[15] جيده ، عبد الحميد : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، 1980 ، ص363 .

فقلما نجد قصيدة إلا وتعبر عن ثورته على الأوضاع التي يعانيها العربي في الأرض المحتلة . الحداثة عنده لا تعني التدمير لكل ما هو قديم وإنما عبّر عنها قائلاً : " لا أعني بالتغيير التدمير أو الإبادة أعني التطوير " [16]. فلغة الحداثة عنده متطورة إلى حد بعيد يبعث الحيوية والحركة في الأفعال لتأخذ عمق دلالتها ولتعبّر عن التغير والتحول فهو يقول [17]:

لا ، ليس شعراً أن ترى قمراً بنقط خارطه .
لا ، ليس شعراً أن ترتب ذكرياتي الساقطه .
فانهض على فرس الدخان
وارحل معي من أجل أمك

في مقطوعته السابقة نقرأ الحركة واضحة جلية في المعنى ، انهض وارحل ، وهي دعوة إلى المقاومة من أجل أمك فلسطين ، وامضِ وسلاحك معك لتمحو عار الذل والهوان وتنطلق نحو الحرية والنور والتحرير . " الثورة داخل الشعر هي ثورة في كل مكان ، وليس في التراث العربي فقط ، وأنا أعتبر نفسي امتداداً نحيلاً بملامح فلسطينية ، عشق المقاومة ، والصعاليك ، ولوركا ، وأراغون الذين هضمت تجاربهم في الشعر والحياة ، وأمدوني بوقود معنوي ضخم " [18].

وهكذا عاش محمود درويش التجدد بمعناه ومبناه ، فكان مع الحلم الثوري المتفائل لأن الحلم بالمستقبل هو حلم ثوري ، والحلم بالماضي حلم نكوصي[19]، فمع الحلم الثوري عاش، فكان للكلمة والموقف والقضية بصور جدّ جديدة ومعبّرة ، " لأن شعر الصورة يكون شعر المفاجأة والرؤيا ، وتغيراً في نظام التعبير عن الأشياء " [20].

وهو القائل [21]:

وأحمد العربي يصعد كي يرى حيفا
ويقفز
وأحمد يفرك الساعات في الخندق
يا أيها الولد المكدّس للندى
قاوم
لا تأخذوه من الحمّام
لا ترسلوه إلى الوظيفة
لا ترسموا دق وسام
فهو البنفسج في قذيفة
اصعد من صناديق الخضار
وقوة الأشياء

---

[16] درويش ، محمود : هكذا أعيش وأناضل ، من كتاب شيء عن الوطن ، دار العودة ، بيروت ، 1971 ، ص323.
[17] درويش ، محمود : حصار لمدائح البحر ، دار سراس للنشر ، تونس ، 1984 ، ص154 .
[18] ينظر : دكروب ، محمد : حياتي وقضيتي وشعري ، دار العودة ، 1971 ، ص258 .
[19] ينظر : إسماعيل ، عز الدين : الشعر في إطار العصر الثوري ، ط1 ، دار القلم ، بيروت ، 1974 ، ص108 .
[20] أدونيس : زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت ، 1971 ، ص154 .
[21] درويش ، محمود : الديوان ، دار العودة ، بيروت ، 1984 ، ص597-598 .

إنها المؤشرات المستقبلية ، السير قدماً في دعوة للصمود والمقاومة ، دعوة للثورة ، فهو يعيش التفاؤل الثوري الذي يصل إلى درجة اليقين من النتائج الفاعلة في الغد القريب .

فالرؤيا التي ترى الأشياء بعين جديدة هي حداثة تقفز فوق المألوف ، والمتوقع ، لتصل إلى درجات من الإيحاء التعبيري ، لترتبط بمكنونات داخلية عقلية ونفسية تلعب قوة المخيلة دوراً في إظهار دلالتها ومعناها ، ولقد تحدث ابن خلدون عن الرؤيا في مقدمته فلم يستطع الشعر التقليدي التعبير عن متطلبات العصر الجديد الذي يعيشه العربي في الزمن الصعب .

لكن الحداثة والرؤيا يفرضان واقعاً جديداً لصور تبدو محتملة بمعانٍ حديثة من حيث النظرة إلى العالم والتبصر في مصير الإنسان أو هو كل ما يعبّر عن الكاتب أو عن فلسفته للحياة في قصائده . فالرؤيا نظرة شاملة وليست فلسفة شاملة ، وقد تقدم عالماً متكاملاً قائماً بذاته مختلفاً عن العالم الواقعي [22]، فالشاعر الكبير لا يفكر بل يوهمنا أنه يفكر فكل شعر عظيم يمنح الوهم بوجهة نظر في الحياة [23]، فإذا كانت الرؤيا من طبيعة الأدب، فالأعمال الأدبية تؤلف بذاتها رؤيا لرسم معالم حداثية مستقبلية تدعو إلى الحرية والخلاص من ربقة الغاصبين ، هذه الرؤيا الحداثية " تعمق اللمحات وتفسّر الماضي ولتشمل المستقبل وتقدم أنموذجاً بشكل مثالي " [24].

فمحمود درويش سعى إلى التجديد فأصاب ، إنه التجديد في قلب التراث ، ولم يشكل حداً فاصلاً وقطيعة معه، متجاوزاً الشكل القديم حيث يقول : " الحداثة الشعرية بالنسبة إليّ هي كيف تعيد الحياة إلى اللغة على إيقاع زمنك الحديث ، هذا بالنسبة إلى حداثتنا الشعرية " [25].

وكما أن محمود درويش يسهب في تفاؤله الثوري ، يؤمن أن قوة الأمل لا تأتي دائماً من قوة التعبير عن نهاية متفائلة لمجزرة إنسانية وهذا جانب من جوانب حداثته الإبداعية [26].

وهو يقول : إن قوة الحزن ، وحتى قوة اليأس ، إذا عبّر عنها بإبداع ، تخلق أملاً ، وهو أمل القدرة البشرية على الإبداع ، أي أن الأمل أو اليأس يأتي من قوة البرهنة على الطاقة الإبداعية لدى الإنسان ، ففي اليأس أحياناً قوة أمل [27].

ومحمود درويش شاعر مبدع حداثي من حيث إيمانه أن الشعر الإبداعي العظيم لا يوجد في الشعر وإنما في النثر ، ذلك أن القصيدة الشعرية أوقعت الشعر العربي في جمود وأن (الفنتازيا) في اللغة العربية النثرية ، لو كتبت بوزن عمودي لما وصلت ، لذا فإن أول ضربة إبداعية لتفجير إمكانات اللغة العربية كانت في النثر وليس في الشعر [28].

فمحمود درويش يعيش حداثة الفكر لا من أجل الإبداع وإنما هو شاعر قضية حمل لواءها فكبرت به ، وكبر بها في كل مكان .

---

[22] صبحي ، محي الدين : الرؤيا في شعر البياتي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1986 ، ص46 .

[23] المصدر السابق نفسه : ص33 .

[24] المصدر السابق نفسه : ص37 .

[25] بيضون ، عباس : كلام في الشعر ، حوار مع محمود درويش ، مجلة الكرمل ، العدد 78 ، شتاء 2004 ، ص80 .

[26] النابلسي ، شاكر : مجنون التراب ، ص596 .

[27] ينظر مجلة كل العرب ، باريس ، تاريخ 1987/1/28 .

[28] بول شاؤول : مسألة الحداثة ، مجلة كلمات ، العدد 5 ، البحرين ، 1985 .

البناء الشعري عند محمود درويش:

دائرة التعبير واسعة عنده ، فشعره يتفاعل مع الإيقاع النغمي ، لا سيما الداخلي منه ، فهو يشارك في البناء الشعري المتكامل الساعي إلى تطوير الواقع وبثّ روح التفاؤل والإقدام .

لهذا جاءت الكلمة حجر الأساس ، دقة في المعنى وجمالاً في القول ، لكنها ولدت لا لتتدرج من الصفر وإنما هي مولودة في درجة الغليان كما قيل ، فلم يبق للمواطن العربي من أشكال المقاومة غير سلاح الكلمة ، فشاعرنا صاحب قضية كرّس شعره من أجلها فهو شاعر ثائر ، والثورة عنده فعل برؤيا ، والشعر رؤيا بفعل . هو شاعر التغيير والتخطي ، شاعر الواقع الشامل الذي يفتت عصرنا الميت لغاية واحدة : أن يولد عصر جديد [29] بكلمة تفعل فعلها بين الناس وهو القائل [30]:

إنني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي
وأمشي
ثم أمشي
وأقاوم

خريطة الكرامة العربية ترسمها دماء المقاومين أولئك الذين رفضوا ذلّ الهزيمة والاستسلام ، نسيج شعري قوي تتجلى فيه القوة عظيمة كمواقف المقاومة ، صلابة تتمثل الشدائد ثباتاً في الملمات ، شفافية في المعنى، وتوازناً في النبرة ليدخل شعره إلى أعماق الناس ، ليجلو الغبار عن العيون ، النضج الفني الملموس في شعره إلى درجة متقدمة من البناء .

لهذا يتحقق في شعر محمود درويش قول القائل : " إن رقابة الإيقاع النغمي في القصيدة تنسجم انسجاماً تاماً مع الميل إلى البساطة والاستواء " [31]. لذلك نجد أن البناء الشعري عنده مميز من خلال الثراء اللغوي المتأصل بجذوره ، المتنوع في اشتقاقاته ، بطريقة لا تثقل القارئ بالمعاناة .

وتلعب الفطرية عنده في ارتكاز الموسيقا الداخلية والخارجية عليها ، ودقة في استيعاب الجرس الشعري العربي ، ويقول محمود درويش : وهكذا أرى أني خطوت نحو المزج بين الأشياء مما استدعى صيغة أكثر مرونة، تتسع لحركة المزج هذه ، أسفرت عن إنزال ضربة غير مقصودة لذاتها ، ببناء القصيدة الكلاسيكية ، وقد حدث ذلك بما يشبه التلقائية ، إذ لا خيار وسط هذه الحركات والرموز في أن تقرر شكلاً ما ، فالعملية هنا هي التي أخذت إطارها وشكلها [32].

رومانسي في قصائد كثيرة نجد فيها المباشرة الثرية بالعذوبة والأحلام ، ونراه ميالاً إلى الرمز والأسطورة والأقصوصة والأغنية الشعبية ، وصور الحياة المتنوعة ، عالجها في موضوعاته بلا مغالاة فكان مع الاعتدال بعيداً عن التعقيد من منطلق الإيمان بالجماهير ، التي يخاطبها ويكتب من أجلها ، فكل فكرة تجلب ما بعدها وتقدم لما يليها حتى تتجسد الصورة الشعرية في حدودها المتكاملة .

---

[29] أدونيس : الشعر العربي المعاصر ، وثلاثة مواقف إزاء الحرية ، مجلة الآداب ، العدد الرابع ، بيروت ، 1967 ، ص18 .
[30] درويش ، محمود : آخر الليل ، الديوان ، ص209 .
[31] صبحي ، محي الدين : الرؤيا في شعر البياتي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1986 ، ص46 .
[32] داؤد ، أحمد يوسف : لغة الشعر ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1980 ، ص52 .

فلقد تطور البناء الشعري عنده وفق وتيرة متصاعدة في تجدد أدواتها دائماً ، هذا التجدد لا يستقر على حال، فالحداثة عنده ليست ثابتة ، وإنما لكل مرحلة حداثتها النوعية ، وهوية كل التوازن الصعب بين جماليات الفن والواقع الذي يكابده ، فتراه مهماً بجزئيات والنص الشعري كتابة وصوتاً ليعبّر بمقولة جديدة جاعلاً العين تسمع والأذن ترى ، فأي شعر ذلك الذي يبنى بعيداً عن الناس لا شك أنه يؤمن بما يكتب ويثق بما يقول :

أجمل الأشعار ما يحفظه عن ظهر قلب

كل قارئ

فإذا لم يشرب الناس أناشيدك شرباً

قل : أنا وحدي خاطئ [33]

لوحات كثيرة تلك التي قدمها الشاعر ، والتي يجود بها خياله الخصب ، إنها اللغة الجديدة التي تحملها القصيدة حباً وحنيناً إلى الأرض التي بنى عليها نضج التجربة الشعرية ، وهو المنفي والمهدد ، فتمت تقنية البحث والتحري لتسيطر على الرؤيا التي تجعل الشعر مبتعداً عن الواقع كلما ازداد انهيار الواقع . كل شيء عند محمود درويش صورة ، وكل ما هو في الشعر صورة ، كم يعمل محمود درويش على أن يكون شعره في متناول الناس جميعاً ، ليخاطب عقولهم ، وليكون مفهوماً من قبلهم دون عناء .

وها هو يقول [34]:

قصائدنا بلا لون

إن لم يفهم .... البسطاء معانيها

فأولى أن نذريها

ونخلد نحن ... للصمت

فإذا كان البناء الشعري عند درويش لا يميل إلى التعقيد فهو شعر مناضل نابض بالحياة الحرة الكريمة، الشعر عنده دم القلب وماء العين ، إنه اللغة الجميلة التي يخاطب بها الآخرين ، حيث يقول [35]:

فالشعر دم القلب

ملح الخبز

ماء العين

يكتب بالأظافر

والمحاجر

والخناجر

نضج تجربة شعرية أسست لبنات الحياة المتكامل . تقنيات استوعبت الصورة المشهدية الحياتية ، وحداثة طورت الموروث ، هي ذاتها تعيد صياغة الأفكار بلغة جديدة ، تعبّر عن اقتران الكفاح بالإيمان باستمرار المعركة،

---

[33] درويش ، محمود : الديوان ، ص65 .

[34] درويش ، محمود : الديوان ، ص55 .

[35] درويش ، محمود : الديوان ، ص123 .

رشاقة تعبيرية أعطت حلية فنية تقوّي موقف الشاعر وهو القائل : " إنني لا أكتب لأعيش، ولا أعيش لأكتب، إنني أكتب لأكون حاضراً " [36].

الرؤيا الوطنية عند محمود درويش:

تناول الشعر العربي الأرض مجالاً وعاطفة وحنيناً، لكن محمود درويش رأى الأرض بمفهومها الرمزي والحركي ، إنها الوطن محبة من خلال ما تلده الأرض ، الأم ، الزيتون ، البرتقال ، ودم الشهداء . الرؤيا الوطنية عنده عبّرت عن الوطن فضاء للشعر . لقد وصلت محبة الوطن عنده إلى درجة العشق والهيام التي لا تعلو عليها إرادة أخرى ، رسم لنفسه رؤيا آمن من خلالها بالمعادلة الثقافية الوطنية التي جسدت الانتماء الوطني والإنساني والذي يعلو على التحديات الداخلية والخارجية .

فكم سمت عنده تباشير الأمل الحاضن للتفاؤل الثوري وهو الذي عصفت به رياح الغربة والتشرد ، فجعل من شعره الثورة ذاتها ، فالشعر الثوري سابق للفعل الثوري وليس نتيجة له ، هو ملتزم برؤيا وطنية مميزة .

فالأمة العربية لم تتفق على قرار سياسي أو اقتصادي أو ثقافي في العصر الحديث ، لكن محمود درويش جاء مجسداً للالتزام الفني بقضايا الوطن ، وهموم الأمة الحياتية حفاظاً على الهوية الوطنية والانتماء القومي . إنها فلسطين التي تمزّق فيها وتحوّل إلى تصميم وإرادة ، فليس أصعب من يكون المرء مهزوماً من الداخل ، وهذا محال مع محمود درويش الذي أحب الوطن وغنّى له ، ومعه وفيه كانت البداية حيث يقول [37]:

لو يذكر الزيتون غارسه

لصار الزيت دمعاً

هذا الزيتون رمز للأرض المغتصبة لكن اخضراره الدائم هو رمز للحياة والمقاومة ضد العدو الغاصب .

ستظل في الزيتون خضرته

وحول الأرض درعاً [38]

فللزيتون رموزه تارة للسلام وتارة للغضب العربي ، أحبّ وطنه وأحب الإنسان ، فالرمل عنده التراب والأرض والطين كلها للوطن ومن الوطن ، هو حيفا ويافا والكرمل وشواطئ عكا . إن الفن شكل من أشكال الحياة وهو محاكاة لها بمقدار ما هو حدسها ، إنه اتجاه يزيد من النشاط الذهني ، ويعبر عن شمولية العالم [39].

ومحمود درويش يمتلك رؤيا المتمسك بالأرض بعيداً عن الهجرة لما في ذلك من مرارة وقسوة ، وهو الذي عانى ألم الغربة كثيراً ، وهو القائل :

لا اسم لنا يا غريبة

عند وقوع الغريب على نفسه في الغريب [40]

---

[36] النابلسي ، شاكر : مجنون التراب ، ص175 .

[37] درويش ، محمود : أوراق الزيتون ، ص40 .

[38] درويش ، محمود : أوراق الزيتون ، ص41 .

[39] ميا ، فاخر : مذكرات نقدية ، اللاذقية ، 1996 ، ص62 .

[40] درويش ، محمود : سرير الغريبة ، رياض الريس للكتب والنشر ، ط1 ، 1995 ، ص37 .

ذكر الغريب والغريبة وتكرار الكلمة يعبر عما في النفس من ألم ، فتتعاضد الدلالات للتعبير عن حالة المؤلف النفسية من خلال العلاقة المتبادلة بين مستوى التعبير ومستوى المضمون [41].

لقد امتدت الرؤيا الوطنية عنده عبر الزمن ، الرؤيا المتعددة لأبعاد فنية تجسد فيها ذكر المواقع التي لها في النفس محبة الوطن المسورة بحلم العودة إلى الأرض والإنسان ، وهو الذي آمن بالتفاؤل الثوري والانتماء الإنساني الذي يعلو على التحديات الداخلية والخارجية ، وكم كان قوله بليغاً عندما قال :

كل الناس جنسيتي

فلتسقطوا عني جواز السفر [42]

ويقول :

سكوا حديد السيوف

محاريث ، لن يصلح السيف ما

أفسد الصيف ، قالوا ، وصلوا

طويلاً ، وغنوا مدائحهم للطبيعة

كي يرقصوا رقصة الخيل

في فضة الليل [43]

رؤيا خاصة ، ينبه الشاعر إلى ما وصل العرب إليه من خذلان وتخاذل بركونهم إلى الدعة ، وترك المطالبة بالحقوق متذرعين بحجة عدم القدرة على المقاومة وقلة الموارد [44]. إن استخدام الكلمة استخداماً دقيقاً يضفي معنى خاصاً على القصيدة عند درويش . وقد عبّر كثيرون عن استخدام الكلمة في الموقع المناسب لتأكيد الدلالة وإعطاء البعد الكافي للمعنى ، فصوت الكلمة والقدرة على استعمالها ، تجسيد للكلمة المنتقاة في ذخيرة المفردات اللغوية الأدبية [45].

إنه لا يعبّر في شعره عن يأس أو روح عبثية أو عدمية قاتمة وهو شاعر الأرض يتمسك بها بأعشابها، بصخورها وترابها ، إلى أبعد الحدود [46] . يعشق الوطن ويعده منبت الخير والحياة ، كل الحياة حلوها ومرها، إنه الحاضر والمستقبل فكل شيء في الوطن له دلالة وحياة وانتماء ، الأرض والذاكرة والربط الوثيق بينهما .

لاجئاً في أرض دون جنسية [47]

عندما نقرأ الشاعر قراءة هادئة هادفة نرى أن الحرمان من الوطن لم يفعل فعله السلبي عنده ، على الرغم من مرارة الحياة القسرية وقسوتها ، حتى حرمان الجنسية الورقية أمده بقدرات تعبيرية ومفردات جديدة أغنت معدم تجربته الإنسانية ، ويقول :

---

[41] ميا ، فاخر : مذكرات نقدية ، ص110 .

[42] درويش ، محمود : حبيبتي تنهض من نومها ، دار العودة ، بيروت ، 1972 ، ص41 .

[43] درويش ، محمود : لماذا تركت الحصان وحيداً ، ص22 .

[44] زيود عبد الباسط : المتوقع واللامتوقع في شعر محمود درويش ، جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، ج18 ، 1427 هـ ، ص37 .

[45] ينظر : ميا ، فاخر : النظم الإبداعي عند السياب ، ص16 .

[46] النقاش رجاء ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، ص307 .

[47] الشعبي مهند محمد ، مرجعيات العقل والإبداع ، ص15 ، د.ت .

يا نوح !
لا ترحل بنا
إن الممات هنا سلامة
إنا جذور لا تعيش بغير أرض
ولتكن أرضي قيامه [48]

هذا التغير ينبئ عن رؤيا الشاعر المتمثلة بالتمسك بالأرض بعيداً عن الرحيل والهجرة لما في ذلك من معاناة وقسوة.

لقد شارك الواقع المرير في رسم رؤيا ذات خصوصية تقرأ جمالياتها في شعره مواقف والتزامات ، إيماناً صوفياً بعدالة قضية وصلت حد القداسة في التعبير والمواقف ، فالرؤيا عنده ترسم لحقائق ، وتتجاوز المتوقع دقة أداء وصدق تعبير ، تجعل من الصور الجزئية مساهمات نحو صورة كلية .

فالقصيدة الجديدة هي الحلم الثوري ، وهي التي تحلق في سماء الإحباط لامعة كنجمة ، عذبة كجرعة الرمق الأخير " إن في وسع القصيدة العظيمة أن تنهض من الخراب ، إذا كان يحركها أمل عظيم أو يأس عظيم " [49]. هذه هي الحال مع شاعر يحمل المصباح كلمات منيرة من بيت لبيت ، تجعل الرؤيا عنده أمراً مختلفاً ، إنها الروح لنسيج القصيدة الجديدة ، والتي هي المعادل الموضوعي للخراب واليأس، ودخول لذيذ في الفوضى اللذيذة التي يحاول إحالتها إلى إيقاع داخلي منظم[50].

تلعب نظرته إلى الحياة دوراً أساساً في توضيح الغموض ، وكم تغوص بعيداً في قراءة الإبهام ، نظهر شخصية الأديب الفنية وتتجه إلى دراسة العوامل الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة والفاعلة في أدبه ولعل نهجه الماركسي يفتح آفاقاً أمام الناقد ليتعرف على العلل والعوامل النابعة من مجتمع معين أو من طبقة معينة .

هذا التحدي الكامن خلف كل حرف من حروف القصيدة جعل الشاعر أمام الواقع الذي عرفه وسعى جاهداً نحوه كخلق إنسان عربي جديد يؤمن بعدالة القضية ، ويسعى إلى خلق المناضل الحقيقي الذي يتحدى العدو الغاصب، ليؤسس ثقافة النضال المقاوم ، والمنتصر بالنهاية لأنه يحمل الرؤيا الثورية التي تجسد التفاؤل الثوري، وتبعث مضمونه الوضاء الذي يشرق معه النور ، وتنفتح عنده تباشير الأمل ومعطياته الحقيقية ، في قوله :

أحجُّ إليكِ يا حيفَا
وأنفضُ عن مصَابيحي
غبارَ الليلِ والزّمَنِ
فما زالتْ مفاتيحِي
معي في الجَيب والعينَينِ والكفَنِ
أحجُّ إليكِ يا عكَّا
أقبّلُ شارعاً شَارعْ

---

[48] درويش ، محمود : يوميات جرح فلسطيني ، دار العودة ، بيروت ، 1972 ، ص9-10 .

[49] درويش ، محمود : أنقذونا من هذا الشعر ، مجلة الكرمل ، العدد السادس ، 1982 ، عن كتاب نظرية الشعر ، تقديم محمد كامل الخطيب ، ط1 ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1969 ، ص616 .

[50] ينظر مراد ، مظلوم : ملامح نقدية عند محمود درويش ، نشرت في 2007/4/18 .

وأحضُنُ كلّ شُبّاكٍ

وعُشْبَاً فَوقَهُ طالع ! (51)

حلم العودة إلى الوطن ، إلى المواقع الثابتة في الأرض ، جذوراً تمتد نحو العمق الفلسطيني ، نحو الرموز التي لها قداستها في القلب والروح . إنه الشاعر الذي ربط بين ذاكرته الشخصية ، وذاكرة الوطن الجمعية وكم كان لهذه المرحلة من أثر في البحث عن الوطن والهوية ، وهو الساعي دائماً إلى تأكيد هوية المكان . لقد أخذت القصيدة عنده شكل المعادل النفسي الذي يحج إليه الشاعر كلما واجه سؤال الوطن والقضية والتشرد [52]، ولقد عبّر عن ذلك قائلاً [53]:

تعلمت كل الكلام وفككته

كي أركب مفردة واحدة هي الوطن

فما كان استنطاق المدن الفلسطينية إلا تكريساً للهوية الوطنية ، وصدق الانتماء . إن الأرض الفلسطينية مدناً وقرى وبيارات تجعل من الحقول والشوارع والبيوت معان ذات خصوصية وتبعث عن حالة نفسية وحالة ذهنية ، إنها الرغبة في التوحد مع الأرض ، وصولاً إلى توحد أعمق من القوى الباعثة للخصب فيقول [54]:

أسمي التراب امتداداً لروحي

أسمي يدي رصيف الجروح

أسمي الحصى أجنحة

أسمي العصافير لوزاً وتين

أسمي ضلوعي حجر

وأستلّ من نبتة الصدر غصناً

وأقذفه كالحجر

وأنسف دبابة الفاتحين

الخيال والإيهام (Image, ambiguity) :

الخيال إيهام نفسي ، يشارك في إظهار الرؤيا المميزة للشاعر ، والتي تصل إلى حدّ الحلم المتفاعل كثيراً مع هذا الإيهام الذي ترضى به رغبات الحالم ليلاً ، والذي قلّ في أحلام النهار ، فالإيهام يتعلق بما ليس حقيقياً ، أما الخيال فلا يهمه إن كان الشيء حقيقياً أو غير حقيقي ، وفي الإيهام يحاول الإنسان أن يتغلب على عدم الرضى بالواقع الذي يكون فيه ، أما الخيال فليس فيه هذا الواقع لأنه تستوي عنده الحقيقة وعدمها بل تستوي عنده الرغبة في الشيء وعدمها [55].

---

[51] درويش محمود ، يوميات جرح فلسطيني ، ص142 .

[52] ينظر : إسماعيل ، عز الدين : التفسير النفسي للأدب ، دار العودة ، بيروت ، د.ت ، ص42 .

[53] درويش ، محمود : الديوان ، أعراس ، ص619 .

[54] درويش ، محمود : ورد أقل ، عدد 19–20 ، 1986 .

[55] ينظر : عباس ، إحسان : فن الشعر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1959 ، ص155 .

وهذا بدوره يجعلنا أمام واقع آخر وهو الأسطورة التي هي شكل من أشكال الخيال ، يبدو أنه لا ينفصل عن الشعر البتة ، نلاحظ أن (نيكلسون) [56] حاول أن يضع منطقاً للخيال فقد عاد إلى عالم الأسطورة وتكلم على عصور ثلاثة :

1- عصر الآلهة .

2- عصر الأبطال .

3- عصر الإنسان .

ولهذا يرى النقاد أن الأسطورة من المصطلحات المحبوبة في النقد الحديث ، وهي متداولة في الدين والفلكلور وعلم الاجتماع وعلم التحليل النفسي والفنون ، وغيرها وقد تستعمل في مناقضة التاريخ أو العلم أو الفلسفة أو الحقيقة .

ولعل الشاعر إنسان يخلق أساطيره الخاصة بما فيه من موهبة أو إلهام وقوة متخيلة ومركز الأسطورة اللاشعور بما يترتب على ذلك من أمور . محاكاة لعقل إنساني محتمل كما هو أو كما ينبغي أن يكون (57) .

الرؤيا ترى الأشياء بعين ثاقبة ، أو اكتشاف علة وجود الأشياء بعين جديدة ، أو نسق تسير عليه الأمور، في خرق العادة والنظر بمقاييس متباينة ، والقفز فوق المألوف ، وقد تكون الرمزية الشعرية العربية ضرباً من العزلة عن الناس ، في الوقت الذي قال بعضهم : إن الشعر التقليدي عاجز عن التعبير عن متطلبات العصر الجديد الذي يعيشه العربي في الزمن الصعب . فالتجلي والرؤيا في الزمن العصيب يفرضان : الصيرورة والقفز إلى دنيا جديدة، لرسم صورة متلاحقة يتضافر بعضها من أجل خلق واقع لصور جديدة وتبدو من خلالها معان حديثة من حيث النظرة إلى العالم والتبصر في مصير الإنسان أو تقييم للصراع بين الخير والشر ، وهو كل تعبير من الكاتب تظهر من خلاله فلسفته للحياة ، والرؤيا نظرة شاملة وليست فلسفة شاملة (58) .

فالمتتبع لمسألة الرؤيا يجدها نسبية لأنها تعبير عن وجهات نظر لمبدعين صاغوا بواسطتها تجربتهم الحياتية والفنية هذه الرؤيا التي تمثّل جملة فرضيات تولدت في عقل شامل وفكر حساس ، وتستجيب لتجارب الحياة استجابة فنية ، ليست فكرية ، وليست فلسفية ، قد تكون تفسيراً للحياة ، أو اقتراحاً لنمط آخر من الحياة ، " فأدب الرؤيا ليس أدباً فكرياً ولا إيديولوجياً لأن الأدب ليس معرفة فلسفية ترجمت إلى تخييل وشعر بل هو تعبير عن موقف عام من الحياة " (59) .

من هنا نجد أن الرؤيا الشعرية عند محمود درويش لم تقتصر على تصوير وتسجيل التناقض بين روح البراءة والإخلاص والسلام ، وبين السفاحين والقتلة والمجرمين ، فالرؤيا الشعرية عنده مرتبطة بحركة النضال العربي في فلسطين ، التي تمتد أصيلة في الأرض تحمل الهوية وتعتز بالانتماء .

---

[56] نيكلسون : (رينولدالين) ، 1868-1945 ، مستشرق إنكليزي تعلم في كمبردج ، ألف في النقد الصوفي ، حلل وترجم كتاب علاء الدين الرومي المثنوي والمعنوي .

[57] أرسطاليس ، فن الشعر ، فصل 25 ، ط1935 ، ص103 .

[58] ينظر : صبحي ، محي الدين : الرؤيا عند السياب ، ص46 .

[59] المرجع السابق ، ص51 .

لقد كانت دخولاً إلى الوجدان الفلسطيني رداً على الموجة اليائسة لأن المهزومين هم التخاذل واليأس والمرارة ، فهو الذي يبحث في الأنقاض عن ضوء جديد ، عن شعر تضيء معه الكلمة وتشرق فيه العبارة ألقاً ومواقف وانتصارات .

فنقرأ في شعر الشاعر الصورة العريضة التي تستخدم لتقديم المكان والبيئة والمجتمع والصورة الطويلة التي ترسم شخصيات ذات رمزية خاصة وتقدم هواجسها ، حيث يتطلع محمود درويش إلى عالم تسقط فيه كل الأسوار بعيداً عن الشعارات التي استهلكت ، فهو يتبني خيار الحرية ، وهو الذي عانى الحصار في الأرض المحتلة فكان شاعر الوطن في قلبه ونفسه ويراعه ، " محمود درويش يربط ثورة شعره بثورة شعبه " (60) .

فالقصيدة عند محمود درويش تحمل مضموناً ثورياً واضحاً لا يحتاج القارئ معه إلى التفتيش في القواميس ليصل إلى المعنى والدلالة ، ولكن اللغة الجديدة التي يتحدث عنها درويش تدفع نحو فضاءات مفتوحة ، ورؤيا عرّت الذات على حقيقتها للعمل الدؤوب عملاً وعلماً ومعرفة لتفصل الكلمة فعلها .

أَنَا لَستُ مِنّي إن أَتَيتُ ولم أَصِلْ
أَنَا لَستُ منّي إنْ نَطَقَتْ ولم أقلْ
أنَا مَن تَقولُ لَهُ الحروفُ الغامضَاتُ :
أَكْتُبْ تَكُنْ ،
وأقرأْ تَجِدْ
وإذا أردتَ القولَ فَافْعَل
يَتَحدْ ضِدّكَ في المعنى
وبالهنَك الشغيف هو القصيد (61)

تقترن الغاية الجمالية بغاية أسمى تتطلب اللغة المباشرة والبعد عن الغموض ليغدو الشعر أغنية شعبية يتغنى بها الشعب ، والشاعر يعمل جاهداً ليكون شعره مفهوماً من قبل كل الناس ما دام هو فعل موجه للناس كافة ، فهي مفتاح عون للمناضلين البسطاء ، وللكادحين في دروب الحياة الصعبة القاسية ، واللغة يجب أن تكون لغة البسطاء من الناس : " لأن الجمهور هو السلاح الحاسم في معركة المصير " (62):

قَصَائِدُنا بِلا لونٍ بِلا طَعْمٍ بِلا صَوتٍ
إذا لَمْ تَحْمُلِ المِصْبَاحَ مِنْ بيتٍ إلى بَيتٍ
وإنْ لمْ يَفْهَمِ البُسَطَاءَ مَعَانيها فأولى أنْ نذريها
ونَخْلُدُ نحنُ للصمتِ

لقد استخدم محمود درويش الياسمين رمزاً للفداء ورمزاً للدم ، وبوابة من بوابات فلسطين ورائحة الوطن ترابه وأرضه وماؤه . وفي الحلم نريد الياسمين ، إنها موازية لفلسطين في النقاء والصفاء والعطاء ، والصبر والتجدد والنور والشمس والأصالة وصغر الحجم وعظيم الأثر والتعدد (63):

---

(60) دكروب ، محمد ، الأدب الجديد والثورة ، ص105 .

(61) درويش محمود : الأعمال الكاملة ، جدارية ، بيروت ، دار الريس ، 2001 ، ص457 .

(62) درويش ، محمود : أوراق الزيتون ، ص92 .

(63) النابلسي ، شاكر : ص315 .

لا تقولي رأيناك في مصرع الياسمين

.....

لماذا تهربين

يحمل القمح رموش الأرض مما

يجعل البركان وجهاً آخر للياسمين [64]

هكذا يجيء الاقتراب من المفردات الشعبية للتوفيق بين شكل القصيدة وهدفها أو بين النهج والغاية وصولاً إلى ملامسة الذات العربية فاعلة في العقول والنفوس ، لتشارك في محاربة الأعداء ، باعثة الهناءة والمسرة في نفوس الأصدقاء ، وقود حياة في كل جانب ، فقوله :

البرتقال يضيء غربتنا

يضيء

يا قبلة نامت على سكين [65]

الورد والمقاومة واللون الأحمر وجدوا في صورة قنديل وورد أحمر وهو ملقى ميتاً فوق حجر [66]. حلم البقاء والسمو والرفعة والانتصار ، والدم الفداء المقاوم .

أبعاد الشعر :

إن استخدام هذا المصطلح لم يعد غريباً عن الأذهان، ولكنه لم يأخذ شكلاً يتناسب مع الطموحات الكثيرة عند الأدباء، وفي وقفة نقدية موضوعية نجد أن الفن الأدبي شيء صناعي خالص يبني فيه الأديب كل عناصره دون الاستعانة بمقومات خارجية ، ويسير فيه الخلق اللفظي إلى جانب الخلق المعنوي دون أسبقية واحد منهما على الآخر كما يرى كثير من النقاد .

وتميل الدراسات النقدية إلى إظهار ما يتصف به الأدب وفنونه من نهج يستهدف حقائق الحياة عندما نبحث عن التعبير الواقعي ، ولعل نظرية الأبعاد ليست شيئاً غريباً عن طبيعة الأدب ، فالأدب تعبير سواء أكان ذلك في الشعر أو النثر ، وليس أجمل من هذه الكلمة لنصل إلى حقيقة هي أن التعبير هو أداء معنى من المعاني في كلمات.

تتعزز فكرة سمو الأدب ورقي معناه وإبحار دلالاته في تلك الصلة الجميلة والفاعلة بين الكلمة والمعنى، فكلما ارتقت الدلالة في الكلمة ، وكانت هذه الكلمة قادرة على حمل المعاني كلما جادت لتعطي أبعاداً تغوص عميقاً في لغة الشعر، وهذا لا يعني أن تبتعد الألفاظ عن المعاني فالكلمات يجب أن تحمل ألق الأفكار وضياءات الخواطر، فتساهم الأفكار الجزئية في بناء الأفكار الكلية حيث بلاغة المعنى وجمالية القول .

إن الأبعاد التي يتخذها الشاعر في التعبير الشعري ، لا تتوقف على كمية المكتوب أو قلته ، وإنما على الأدوات التعبيرية التي تتفاعل لتعطي انعكاسات فاعلة للمعنى والألفاظ عند القارئ وبهذا تفلح الأبعاد الشعرية في بث شعور يتميز بتجربة شعورية تحمل في جنباتها أصداء الحس الشعري الذي تتباين مستوياته تبعاً لنوع التعبير وتأثير ذلك في تقريب النتاج الأدبي من ذوق المتلقي ، ولعل الأنغام التي تتصف بها الكلمات الشعرية تساهم في خلق جو انفعالي فليس الوزن السائد في القصيدة وحده المعبر عن الإيقاع في القصيدة ، فهناك عالم خاص تصنعه

---

[64] درويش ، محمود : العصافير تموت في الجليل ، ص262 .

[65] درويش ، محمود : أحبك أو لا أحبك ، ص420 .

[66] درويش ، محمود : آخر الليل ، ص217 .

الكلمات التي تؤلف العمل الشعري ، حيث تتباين الألوان بعضها عن بعض ، فالكلمة حقيقة صوتية وكتابية تحمل وظيفتها الدلالية بإثارة الصور المادية والذهنية في التصور والذاكرة على رأي كثير من النقاد والدارسين . فألاعيب اللفظ وتنميق الأسلوب باتت خارج دائرة الأبعاد التي يرنو إليها الشاعر والكاتب ويريدها المتلقي فالشعر لم يعد مستقلاً ، ولعل الخطاب بواسطته لامس حسّ الناس وعايش واقعهم مما رسم أبعاداً جديدة تسير في دنيا الحداثة قراءة ومعانٍ ودلالات .

لقد قيل في الشعر ما لم يقال في غيره من فنون الأدب ، حيث يجد الناس في الكلمات عالماً جديداً من الفكر ومن الشعور ، وظاهرة الجنوح إلى الخيال في الشعر تأتي تخفيفاً للقيود ، وبحثاً عن التحليق عالياً وسعياً نحو الإبداع والتخيل والغنائية . والشاعر هو صاحب الأسلوب والأداء ، فالشاعر الخيالي قادر على استخدام الرموز (الزيتون ، والبرتقال ، والبيارات ، والمناديل) والتي تمنح الأشياء مغزى خاصاً .

الشعر هو بوح داخلي لتجليات الحقيقة من أجل إبراز الفكرة في إطار جميل ، ولكن لا بد في النهاية من القول إن المبنى والمعنى مرتبطان أشد الارتباط في الأعمال الأدبية، ومحال أن يرتقي أحدهما بغير الآخر، يقول العقاد : " الشعر الحق هو الذي تنثره فلا يصل في تأثيره وجماله إلى ربع ما كان عليه وهو منظوم لأن المسألة ليست مسألة معاني ترد هنا وهناك بل روح فنية تسري في الشعور وتكسبه إحساساً لا يتأتى إلا إذا وصل على نحو معين " [67] .

ولما كان الوجدان الشعبي المؤثر في شعر محمود درويش ليس تقليداً لأحد وإنما هو سمة بلاغية من سمات استخدام الكلمة في مكانها المناسب ، حيث ركز محمود درويش على العقيدة الاشتراكية في حياته وذلك لأنها الطريق الوحيدة التي يمكن أن يسلكها في فلسطين المحتلة ليسمع صوته إلى الآخرين ، ولإيمانه بعدالة الطرح الاشتراكي من أجل تغيير الواقع الحياتي لبني البشر ، ثورة ضد الظلم والاضطهاد ، ودعوات إلى التحرر ونبذ العبودية ، ورفض الاستغلال بكل صوره وأشكاله . إن محمود درويش الذي ولد كبيراً ، وما كان ليصغر ظل يؤمن أيماناً مطلقاً أن القومية العربية هي الملاذ الذي ينقذ العرب مما هم فيه من تمزق وتشتت وضياع ، تتجلى فيه القومية والوطنية في محاربة العنصرية ، ويدرك أن العروبة منفتحة على العالم بعيداً عن التعصب والانغلاق، فخور بعربيته وما قصيدة هوية إلا الصوت الصادق المنبعث من القلوب هتافاً رددته جماهير العرب في كل مكان:

سجل أنا عربي
ورقم بطاقتي خمسون ألفاً
وأطفالي ثمانية
وتاسعهم سيأتي بعد صيفٍ ! فهل تغضب ؟
وإني من أسرة المحراث
لا من سادة نجب
وجدّي كان فلاحاً
بلا حسبٍ ... بلا نسبٍ

[67] إسماعيل عز الدين ، الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار العودة ، ودار الثقافة ، بيروت ، ط3 ، 1981، ص198 .

إنه الخبز ، هو رمز للشرف والفضيلة والإصرار على الحق ، إنه الماضي والحاضر والمكان ، إنه الرمز في الحرب والسلام ، إنه الطعام ورمز الحياة ، والاستمرارية والأمان ، والسلام والمحبة .

سجّل
برأس .... الصفحة الأولى
أنا لا أكرهُ الناس
ولا أسطو على أحد
ولكني .... إذا ما جعتُ
آكلُ لحم مغتصبي
حذارِ .... حذارِ ... من جوعي
ومن غضبي !! (68)

إن الشاعر يستعمل فعل الأمر في هذه القصيدة لكي يؤكد الفعل المضارع ، فالأمر لا زمن له يتجه المضارع نحو فعل إنساني مستقبلي ، وهذا ما يريده محمود درويش ، فمعظم قصائد درويش لا زمن لها ، لأن فعلها الحاضر والمضارع هو فعل استشرافي ــ استقرائي تنبؤي مستقبلي لا يهتم به كثيراً بما وقع ولكن بما سيقع [69]. كانت تقنية البحث والتحري كانت تسيطر على رؤيا البحث والتحري في كثير من الأحيان فكان الشاعر متوازناً وخلاقاً مبتعداً عن الواقع كلما ازداد انهيار الواقع . فشعره الذي استوعب الصورة العريضة والصورة الطويلة جعلت الكفاح يقترن إلى حد بعيد باستمرار المعركة .

فغدت الرؤيا عنده في الحياة والإنسان تفاؤلاً ثورياً جعل من الكلمة قبس ضياء تشرق معه العبارة ألقاً لرسم مظاهر التحدي التي يحفل بها تاريخ الإنسان العربي ، والشاعر الذي عاش تجربة التجديد جعل منها دعوة قائمة موجهة إلى كل رفاقه الشعراء حيث يقول :

يا رفاقي الشعراء نحن في دنيا جديدة
مات ما فات
فمن يكتب قصيدة
في زمان الريح والذرة يخلق أنبياء (70)

فالتجديد أصبح موازياً للثورة ، وموازياً للحياة ، لأن الحياة هي الكتابة لما يقول : " أن تكتب معناه أننا قادمون لتونا إلى الحياة ، معناه أن نتجدد ، معناه أن نفرح بالقدرة على دهشة العالم ، معناه أن نحيا ، معناه أن نثور" (71) .

هكذا أراد محمود درويش أن تكون موضوعاته تعبيراً عن قضية ، وهمه الإنساني والثوري ، فهو الذي أراد شعراً مرتبطاً بالإنسان ، وهموم الإنسان ، وأحلام الإنسان ، " لا شعراً تكون وظيفة هي الإمتاع والترف والجمال

---

(68) درويش – محمود : أوراق الزيتون ، ص10–11 .
(69) النابلسي ، شاكر : مجنون التراب ، ص621 .
(70) درويش محمود ، أوراق الزيتون ، ص91 .
(71) درويش محمود ، وداعاً أيها السلام ، ط1 ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، 1974 ، ص129 .

الخارجي المجرد عن أي وظيفة إنسانية " [72] . فجاءت لغته نبعاً ثراً تنمّ عن مخزون ثقافي ، كنزه الشاعر من إرثه الأدبي والثوري ، وطوّعه بما يتلاءم مع تجربته التي أرادها جديدة فريدة ، لأن الإبداع معركة داخل اللغة والموروث. فالحداثة عنده هي حالة لتطور الموروث ، هذه الحالة لا تهدم وإنما تعيد الصياغة الفكرية واللغوية بشكل جديد، فالحداثة هنا خلق جماليات جديدة تجذب انتباه القارئ وتشده نحو . القصيدة الجديدة التي هي الأمل الثوري ، وهي التي تحلق في سماء الإحباط لامعة كنجمة ، عذبة كجرعة الرمق الأخير ، مهمتها التعبير عن الواقع الجديد ، للخروج من أعباء الانكسارات ، ونرهل الانتظار واستشراف المستقبل .

إنه عاشق من فلسطين يغازل الوطن المنتشر في شعر درويش دون ذكره صراحة ، فكل الرموز للوطن الحبيب، فالزيتون والعنب والبرتقال والرمل يخاطب من خلالها الوطن ، على الرغم من المخاطبة التقليدية المعروفة كانت في قوله : أيها الوطن المتكرر في الأغاني والمذابح ، وامتدت لفترة زمنية محدودة ، ويخاطب فلسطين مباشرة بقوله :

وطني يعلمني حديد سلاسلي
عنف النسور ورقة المتفائل [73]
عيونك شوكة في القلب
توجعني وأعبدها
وأحميها من الريح
وأغمدها ، وراء الليل والأوجاع .... أغمدها
فيشعل جرحها ضوء المصابيح
ويجعل حاضري غدها
أعزّ علي من روحي
رأيتك من ملح البحر والرمل
وكنت جميلة كالأرض .... كالأطفال .... كالفلّ
سأكتب جملة أغلى من الشهداء والقبل
فلسطينية كانت ولم تزل [74]

وكم هي كبيرة مأساة فلسطين التي ربطت بين ذاكرته الشخصية وذاكرته الجمعية ، ذاكرة البحث عن الوطن والهوية والمكان ، في تجاوز الانكسارات والهزائم العربية ، في إطار إبداعي لم تثنه الطفولة المعذبة والحرمان والأحزان عن متابعة ما أراده نصراً يتجاوز الصعاب والمتاعب ، ولكن " نشوة الإبداع قد هونت على الشاعر الآلام بل جعلته يستعذبها" [75]

ولذا تجيء الأصباغ عند محمود درويش على حقيقتها ، رشاقة التعبير ترجمة للبعدين المكاني والزماني كحيلة فنية تقوي موقف الشاعر من تعليق الحكم على فشل المستقبل أو الانهيار أمام هزائم الحاضر .

لهذا تبدو الرؤيا نسبية في التعبير عن وجهات نظر لمبدعين صاغوا بواسطتها تجربتهم الحياتية والفنية. ومحمود درويش واحد من الشعراء الثوريين الذين حملوا وهج الكلمة، لون ورود ، تحمل ألق المقاومة ، وقناديل في صدور

---

[72] النقاش رجاء ، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، ص148 .

[73] درويش ، محمود : آخر الليل ، ص239 .

[74] درويش ، محمود : عاشق من فلسطين ، دار العودة ، بيروت ، ص9–10 .

[75] إسماعيل ، عز الدين : التفسير النفسي للأدب ، ص42 .

الشهداء ، يقرأ الوطن شمساً ونشيداً لأبناء فلسطين، أولئك الذين يجدون أن قوة الحياة المتولدة من قوة فعل الموت ، لأن العربي الفلسطيني لا يمتلك غير دمه . وهو القائل :

أقول للمحكم الأصفاد حول يدي هذي أساور أشعاري وإصراري

في حجم مجدكم نعلي وقيد يدي في طول عمركم المجدول بالعار

في اليوم أكبر عاماً في هوى وطني فعانقوني عناق الريح للنار (76)

خاتمة:

محمود درويش شاعر الأرض المحتلة شكلت الغنائية الرومانسية العذبة بدايات شعره سرعان ما تحولت موهبته الشعرية إلى بحر متلاطم الموج ، مغلفة إرادة ثورية تعمل على التغيير والفعل في أفق إنساني رحب، أمميته لم تثنه عن عروبته ، وحبّه لبني البشر زرعه عشقاً لتراب وطنه فلسطين ، جندي من جنود الفتح العربي، ليبتكر وبموضوعية وحداثة صوراً جميلة . فقد عاش متطلعاً إلى عالم تسقط فيه كل الأسوار بعيداً عن الشعارات التي استهلكت ولا طائل منها ، وكم لعبت الصورة الطويلة عنده في رسم الشخصية وتقديم هواجسها وكم أسهبت الصورة العريضة في التعبير عن المكان والبيئة والمجتمع.

فسمت نظرته للحياة توضيحاً للغموض وإبحاراً في قراءة الإبهام بما يثير التناقض بين الرؤيا والمواقف التي تفرض ذاتها خارج الخارطة الرؤيوية ، وبناء مسيرة الأديب تنبثق من خلال آثاره فكم ترك فينا من آثار عبرت عن مفهوم البطل الذي جسّد المثل الأعلى الوطني والقومي ، لا تهمه الشهرة ولا المجد ولا شيء مما قد يصيبه بل يظل هو الصادق مع نفسه ، الأمين على الكلمة في مواجهة الخطر ، فلقد تغنى بشعره المناضلون ، يرتفع بمواقفه فوق الجراح الراغفة ، هدفه وراء ذلك كله زرع الثقة في النفوس ، وبثّ روح التفاؤل بيوم النصر المؤزر.

الفكرة الجديدة والعبارة المتألقة تحتضن المعاني في إطار ثقافة التجديد التعبيري والفني ، من أجل خلق إنسان جديد ، مؤمن بالعمل الجماعي قولاً وعملاً وإرادة ، قوته بالانتماء ، للهوية الوطنية والقومية سلوكاً وممارسة فالأنا ظاهر الأشياء والذات هو العمق . القصيدة عند محمود درويش تشكل نسقاً خاصاً بالغ الحساسية في تشكيلها الموسيقي المنشود سعى إليه الشاعر فأصاب جوهر التغيير الجديد في البنية والشكل فكان بناء القصيدة الحديثة مطلباً يسعى مريدوه ودعاته، لكنه ينهج منهج التفاؤل الثوري ، أثار وعي الجماهير العربية ، فهو كاتب وشاعر لا يتفرج على الحياة بل يلتحم بها مواطن عربي ، قضيته قضية وطن ، هي قضية العرب جميعاً .

هكذا يلخص الشاعر ذلك الجوى ، ويترجم تلك الأحاسيس العابقة دائماً بأريج الأرض لا تفت من عزيمته الصعاب، ولم تلوِ ذراعه الهزائم بل ستظل أزلية الانتماء للأرض ، نسغاً حياً يمده بأسباب الحياة ورمزاً خالداً على الزمان .

شعب وأرض وشعر مقاوم تحدّث عن العظماء ، أسطوري في مشاهد متنوعة ، غنائي ، ملحمي الطابع تقوم منهجية خطابه الشعري على التداخل والتلاحم ، والاتصال حتى أصبح الوطن عنده فضاء الشعر [77].

---

[76] درويش ، محمود : عاشق من فلسطين ، دار العودة ، بيروت ، ص35 .

[77] النابلسي ، شاكر : ص232 .

المراجع:

1- أدونيس . زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت ، 1978 .
2- الأصفهاني . الأغاني ، تحقيق د. قصي الحسين ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 2004 .
3- أرسطوطاليس . فن الشعر ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1953 .
4- أيزر فولفانج . عمليات القراءة ، عفيف علي ، مجلة فصول ، مج16 ، ع4 ، 1988 .
5- إسماعيل عز الدين . الأسس الجمالية في النقد العربي ، ط1 ، دار الفكر العربي ، 1955 .
6- إسماعيل عز الدين . التفسير النفسي للأدب ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 .
7- إسماعيل عز الدين . الشعر العربي المعاصر ، ط3 ، دار العودة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1981 .
8- إسماعيل عز الدين . الشعر في إطار العصر الثوري ، ط1 ، دار القلم ، بيروت ، 1974 .
9- بيضون عباس . كلام في الشعر ، حوار مع محمود درويش ، مجلة الكرمل ، العدد 78 ، شتاء 2004 .
10- الجاحظ . الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ، 1945 ، ج3 .
11- الجادر محمود عبد الله . الصورة بين الرؤية والرؤيا في الشعر العربي ، مجلة المورد ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، العدد الأول ، 1995 .
12- الجرجاني عبد القادر . دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد بن تاريت ، (د.ت) .
13- ابن جعفر قدامة . نقد الشعر ، تحقيق محمد عيسى حنون ، مصر ، 1934 .
14- ابن خلدون . تحقيق سهيل عثمان ، دمشق ، وزارة الثقافة ، 1978 .
15- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مكتبة صادر بيروت ، مناهل الأدب العربي ، 1950 .
16- ابن خلدون . مقدمة العلامة ابن خلدون ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المطبعة الأدبية ، 1900 .
17- داؤد أحمد يوسف .لغة الشعر ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1980 .
18- درويش، محمود . أحبك أو لا أحبك ، بيروت ، دار الآداب ، 1974 .
19- درويش، محمود . الأعمال الكاملة ، بيروت ، دار الريس ، 1974 .
20- درويش، محمود . أنقذونا من هذا الشعر ، مجلة الكرمل ، العدد 6 ، 1982 .
21- درويش، محمود . أوراق الزيتون ، بيروت ، دار العودة ، 1933 .
22- درويش، محمود . الديوان ، بيروت ، دار المعارف 1994 ، ط11 .
23- درويش محمود . حبيبتي تنهض من نومها ، دار العودة ، بيروت ، 1972 .
24- درويش، محمود . شيء عن الوطن ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
25- درويش، محمود . عاشق من فلسطين ، بيروت ، دار الآداب ، 1968 .
26- درويش، محمود . وداعاً أيها السلام ، ط1 ، بيروت ، 1974 .
27- درويش، محمود . يوميات جرح فلسطيني ، دار العودة ، بيروت ، 1972 .
28- دكروب، محمد . الأدب الجديد والثورة ، دار الفارابي ، بيروت ، 1980 .
29- دكروب، محمد . حياتي وقضيتي وشعري ، دار العودة ، بيروت ، 1971 .
30- الشعبي، مهند محمد . مرجعيات العقل والإبداع ، ط1 ، دار الينابيع ، دمشق ، 2002 .

31- صبحي، محي الدين . الرؤية في شعر البياتي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1986 .
32- عباس، إحسان . فن الشعر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1959 .
33- عبد الحميد، جبده . الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، 1980 .
34- مراد، مظلوم . ملامح نقدية عند محمود درويش ، 2/1 ، نشرت في 2007/2/18 .
35- ميا، فاخر . النظم الإبداعي عند الشاعر بدر شاكر السياب ، دار الينابيع ، دمشق ، 1999 .
36- ميا، فاخر . مذكرات نقدية ، اللاذقية ، 1996 .
37- النابلسي، شاكر . مجنون التراب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، 1987 .
38- النقاش، رجاء . محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ، المؤسسة العربية ، بيروت ، 1972 .